# خرافة الإشعاع ..

بقلم حمد أبو سعد

[ الى سعيد عقل وسائر رفاقه القدامسة ]

في لبنان عندنا طائفة من الشعراء والادباء ، نشأوا في ظل « الانتداب » ولقنوا دروسهم من « الأجنبي » فطعموا عند هذا الغريب نكهة جديدة ، لم يذوقوا مثلها في ادب من سبقهم من « الانحطاطيين » .

وكان العصر يومذاك عصر نشأتهم لا يزال عصر جهل وجمود وموت ادبي كاسح : بلاد العرب في جملتها تغط في نوم عميق ، ولبنان تسعون بالمئة من شعبه أميّون معدمون ، او خائفون منقسمون ، ومعظم شعرائنا جثث محنطة ، لا ادب ولا فنون ولا احد ممن هم يخلقون ؛ فاستفاد هؤلاء الشباب من واقع الادب المرير ، واغتنموا فرصة خلو الساحة فطالعوا الناس بقصائد واغنيات طبعوها على غرار ما قرأوا من شعر الفرنجة ، وصبوا فيها عواطف واحاسيس ان لم نقل انها كانت أحاسيسهم هم وعواطفهم ذاتها ، فقد كان على كل حال وتراً غريباً وانغاماً جديدة ، رأى الناس فيها تعبيراً عن حاجتهم الى التطور وتلبية للنوازع التي تمشي في خواطرهم من ميل الى الحرية في التعبير ، وتنكب عن الطرق المألوفة ، فاستقبلهم الجمهور الادبي بحميّة صارخة وصفق لنبوغهم ، وأفسح لهم في المجالس ، وبات ينظر اليهم نظرته الى طليعة ادبية تعيد الى الادب العربي مجده الغابر ، وتشق الطريق الى نهضة جديدة منشأها لبنان وكان الذي كان ، كان ان أطلقت على لبنان يومذاك تلك التسمية « وطن الاشعاع » ترجمة للكلمة الفرنسية Pays de rayonnement .

أما ماذا كان تأثير تلك التسمية على نفوس هؤلاء ، فلا تسل عن ذلك . فقد سكروا بخمرة الظفر ، وهز أعطافهم الغرور ، فتعالوا وافتتنوا ، وبدلاً من ان يتجهوا بأدبهم الاتجاه الذي يخصب نتاجهم ويعمقه ويكفل له السيرورة والخلود ، وبدلاً من ان يعكفوا على تقاليد شعبهم ، وينبشوا الخالد من تراثهم وآداب لغتهم بغية تطوير هذا التراث واثراء تلك اللغة كما فعل قبلهم اليازجيون والبستانيون واحمد فارس الشدياق وغيرهم — أجل بدلاً من ان يفعلوا كل ذلك اقعنسسوا وتنرسسوا — على لغتهم — وتنكروا لكل ما في الشرق ، وراحوا يحملون على تراث العرب ، ويدعون الى نبذه والتمسك بأدب « الحفريات » وإحلال العامية محل الفصحى وابدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني ، لا عن وعي وتجرد مخلصين ، أو عن تمرّس بالروح العلمية الموضوعية ، بل إعجاباً منهم بالرطانة ، وإيثاراً للركاكة ، وحقداً على العرب الخالدين ، واشباعاً لغريزة في نفوسهم لا تؤمن الا « بشيء » الغريب .

ويا ليتهم اكتفوا بذلك بل قعدوا يحيكون حول هذا كله « قصة » ويبشرون « بمذهب » ، يودون ان يعملوا من الغرور حقيقة تؤرخ ؛ فآمن بهم من آمن و كفر من كفر . فعاش هؤلاء واغتذوا وبنوا أمجادهم بفضل تناحر الاهواء والاغراض .. أما نحن — نحن تلامذتهم — فآمنا بهم و كفرنا . آمنا بهم رغم انحرافهم — شعراء مبدعين غنوا لنا في مرحلة من مراحل تطورنا النفسي قصائد وأناشيد كانت تلبي في وقت من الاوقات حاجتنا ، وتنفذ الى أعماق وجداننا ، لكنها بعد أن انقضت تلك الفترة واستقل لبنان ، وأجر الفاتح المغتصب ، وتغيرّت الدنيا ومن عليها لم تعد تلبي حاجة من حاجات عصرنا وتكشف عما يختلج في أعماقنا ، أو تصور مرحلة نخوض في عبابها .. فلم يهن علينا ان يتدهور لبنان ويخبو اشعاعنا ، ونتخلى عن الرسالة التي انتدبنا لها انفسنا ، فتطلعنا الى أدباء الطليعة — نوابغنا اياهم — نسأل عنهم أيان أدبهم وماذا بعدُ عندهم ؟ فاذا هؤلاء « المفلسون » يراوحون في مكانهم « يجترون » ما قالوه منذ عشرين عاماً ، وما قاله غيرهم من الغربيين منذ قرون وقرون ، ينظمون بالعامية ما نظموه امس بالفصحى — على حد قول الاستاذ رئيف خوري — أو يجددون طباعة كتبهم في طبعات فاخرة باهظة الثمن [1] « يتلذذون » بالنظر الى صورها .. ثم يقفون في التفكير عند مرحلة بعينها : واحد يقف عند اغسطينوس وآخر يتشبث بتوما الاكويني وآخر يصل الى برغسون ، لا يتزحزحون عن هؤلاء ، يقتحمون عليهم قبورهم ويتقمصون شخصياتهم ويحفظون عنهم أفكاراً لا يكفون عن التحدث بها ، والافاضة بذكرها ، ونسج الهيولى حولها ؛ حتى استحالت عندهم الى « أفكار ثابتة » و « عقد نفسية » Complexes سببت لهم هذا « الهذيان » Délire أو « خرف الشباب » Démence précoce اللذين يقول علماء النفس : إن من أهم أعراضها

١ أعيد هذا العام طبع ديوان شعر لسعيد عقل طبعة جديدة مزوقة ثمنها خمسون ليرة لبنانية .

الفرار من الواقع ، وتقمص الكون وأفكار العظمة ( لبننة العالم ) والاعتقاد الخاطىء غير المطابق للواقع الذي لا يمكن اقناع الهاذي بـــه بفساده .. ويضحك صديق لي متخصص بالامراض النفسية ويضع لكل هذا مصطلحاً عربيـــاً يسميه « مرض الفطام » ويشرحه بقوله : إنه مرض يصيب عاطفـــة الفرد فيمنعه من الوصول الى درجـة النضوج العاطفي فيظل دائماً ملتصقاً بأمه ( لِزّ أمه ) يستمد منها كل شيء الى آخر ما يقول صديقي الدكتور ...

لقد انتظرنا ان يشفي الاستقلال هؤلاء من مرضهم ، ويردّهم تفريـــق الشمـــل الى اهلهم ، انتظرنا ان يزداد اطلاعهم فيتجاوزوا هـــذا « المذهب » الى الوان جديدة في الشعر واساليب « عصرية » في التفكير تتلاءم مع التيارات التي يضطرب بها مجتمعنا ، وتتلاقى مع الافكار التي يميد بها العالم ... فانتظرنا وانتظرنا ، ومضت سنون ونحن ننتظر حتى مللنا الانتظار ، فدفعنا هذا الملل اخيراً الى الكفر بهم ، وعقد العزم على « تصفية » حسابهم مرة واحدة انقاذاً لسمعة لبنان .

ربع قرن مضى وهؤلاء « الادعياء » يصولون ويجولون « يرسمون » هـــذا شاعراً ، و « ينصّبون » ذلك نابغة ، يتقاسمون ارض العبقرية ، منطقة نفوذ لهذا ، ومنطقة نفوذ لذاك . ثم يحضن بعضهم البعض الآخر ويجلسون فيرددون المعزوفة نفسها والاسطوانة اياهـا : لا وحي إلا في سمائهم «وما من حق ولم يبقوا هم [1]» هم الذين علموا اوروبة «جاء قدموس بالكتابة للغرب [2] » و « منهم كان طاليس وان زوّر من بعد ، وهم غنوا وهوميروس لم يحلم به مهد [3]» هم الذين هم ، وتعجبهم انفسهم فيقررون احكاماً و « مرتجلات » اقرب الى قصائد الفخر واشعار الحماسة منها الى الكلام المدروس والمنطق الواعي السليم : « لبنان وطن للحقيقة وكلمة حق الى العالم .. لا يتنازل لبنان عن رعاية العقل وعلة وجوده انه عقل . **للبنان رسالة فذة في العالم تخولنا لبننة العالم** .. نحن شعب نترصن والمسكونة رعونة ، نرصف ذواتنا بالاسى والناس عويل ، نتطلع الى الفكر والشعوب تحمس لتاريخ وتشبث أرض واجتماع على مادة ، نكبر على الجلى والامم اهتياج

١ خلاصة لبنانية لسعيد عقل .
٢ قدموس .
٣ اول الربيع لرشدي معلوف .

وسل سيف وحرب ، نغترب في فوق ، والآخرون في امام ، نحن [1] ... » فبربك هل من فرق بين هذه الانشودة وقصيدة عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي « العربي » القائل :

ملأنا البر حتى ضاق عنـــا وصـــدر البحر نملأه سفينا
اذا بلـــغ الفطام لنا صبي تخر له الجبـــابر ساجدينا

انها مجرد كلمات تعجبك رنتها ، وتفتن بطريقة بنائها ، يصوغونها وهم في خدر وشبه غيبوبة ، فتسكرهم الصياغة وحلاوة الايقاع فيستنيمون لها ويشعرون بعد «إفراغها» بنشوة فرويد وحده ادرى منك ومني بحقيقة اسمها — وتحس عندما يقرأونها عليك وعيونهم غائمة ، واجفانهم ذابلة واذهانهم سابحة بانهم « ممثلون » بارعون يجيدون فن الايحاء suggestion ويتقنون لعبة الشعوذة . واستأذنك ان تسمح لي بهذه التسمية وتصغي الى سعيد عقل — زعيم القدامسة - يقول في مقدمة ديوان قدموس صغير [2] من هؤلاء :

« وددت لو يفسح لي في اثارة مسألة الشعر في بـلادي . كنت أبدأ بالقول دونما تردد على **لطافة اللفتة** : ان علاقـــة لبنان بالشعر هي كعلاقته بالهواء والماء . وهكذا **أجبـــه** القاريء فيتفرس بي كأنما يحمل كلامي على القول الجزاف . فلا البث أن **أربت على كتفه** واظل **اتودد** اليه آناً **بأناقة قول** وآناً **بطرافة فكرة** حتى يرتاح اليّ **فيسهل** عليّ أن استغل هذا **التوهم** منه فأدخل في روعه على أهون سبيل آراء ممنعة لو راحت على جمالها وعافيتها تطالعه **بدون تملق** لظنها التي لفوطيفار وهرب . أسأله مثلاً ما علة وجود لبنـــان ؟ ويكون هذا التلميح **قد فعل فعله** وغدوت وأنا ذو **سطوة** على القاريء ، فأروح أغمس ريشتي **بالرعد** ، وأصرخ في وجهه ( نسي ان يقول : بلهجة زحلاوية ) : برّر وجود لبنان على الزمن انه كان رسالة العقل في الشرق . وادرك ان قارئي **قد صدع** فأجمع من شتات قواي وتكون قـــد راودت مخيلتي **اشارات مشعوذ** ( هنا بيت القصيد ) مرّ في ضيعتنا في أحـد أيام الصيف .. **فأقفز** الى خريطة العالم أحاول نقلها الى ضوء عيني . **فينجرف** القاريء في تيار **قفزتي** ويؤخذ **باستـــدارة عيني** وأظل في هذا النحو حتى **تلين اوتار الاخذ** عند قارئي .. » ويتعطل حسه ويدخل في « اللا وعي » فيقتنع مع سعيد عقل بأن لبنان بلد الاشعاع الفكري .

١ خلاصة لبنانية لسعيد عقل .
٢ اول الربيع .

أرأيت الى هذا التنويم المغناطيسي ، وهلا اقتنعت معي يا سيدي القارىء بأن كلمة الشعوذة ليست فرية مني جلبتها من بيت أبي انما من فمك أدينك يا اسرائيل ؟!

هكذا يريد هؤلاء الاخوان ان يبرروا كون لبنان بلد الاشعاع وبالخلط والتمثيل والشعوذة يطمحون الى لبننة العالم لا بالايمان بالعقل – العقل السليم – أو بالتنزه عن الخرافات والأوهام ، والتجرد من الاغراض الشخصية استناداً الى اساليب التفكير العلمي .

كنا نود المرور بهؤلاء مرّاً كريماً فلا نتعرض لهم بنقد ، ونترك للتطور ان يجرفهم .. لكن التطبيل والتزمير و « التشتشة » التي لا يزال يستقبل بها هؤلاء لدى بعض القراء المضللين والناس المتعصبين هي التي حملتنا على ايضاح موقفنا منهم . ربع قرن بكامله وهم يتربعون على عروشهم ، ويقعدون من الناس مقاعد المعلمين يبخّرون سمومهم وما من احد يرشقهم حتى ولا بباقة زهر ؛ حتى غدوا وكأنهم قدس الاقداس ، من يمسهم يمس « الكيان » أو يجدف على « الميثاق الوطني » ..

أقول هذا وأستغفر فريقاً من المنصفين ، وأحمد ربي أن في بلادي شباباً لم يقمشوا الثقافة قمشاً ، او يكتفوا من الغرب بقشور ثقافه الغرب ، بل آمنوا بالعلم ، وسعوا في طلب الحقيقة منزهين عن الأهواء والاعراض ، يهمهم شرف بلادهم فلا يجمعون آراهم من « المدافن » أو يقنعون بالتغني بالأمجاد – ساحلية كانت أم صحراوية – بل يعون مجاري التيارات العالمية ، ويستمدون افكارهم من زمانهم ومكانهم وواقع مجتمعهم « يستمدون جوهرهم من الفعل ويحضون على الفعل بالفعل » لا كهؤلاء اللازمانيين واللامكانيين الذين يحلقون فوق الواقع ويستمدون جوهرهم من الكلام ويحضون على الفعل بالكلام .

يقول الدكتور نجيب صدقة ، مدير التربية الوطنية في لبنان « للبنانيين الذين سبقونا فضل كبير على النهضة فقد ارخوا العلوم ووضعوا المعاجم وانشأوا المجلات الى آخر ما حققوا من المشاريع الكبرى ، فاين لبنان اليوم من هذا التاريخ المجيد ؟ الواقع أيها السادة **ان الثقافة اللبنانية في خطر** ، وأن المركز الممتاز الذي كان يتحلى به لبنان لعشرين سنة مضت تخلى عنه او كاد .. لبنان اليوم **يكتفي بالتغني بالامجاد** .. صحيح أن المستوى الثقافي العام ربما يكون أرفع من مستوى بعض البلدان المجاورة من حيث القضاء على الأمية .. غير أن التاريخ إذ يقرر أفضال الامم لا يقررها **اعتمادا على المواهب** بل **على الاثر الذي تتجسد فيه** هذه المواهب . إن التاريخ لا يهتم الا بالانتاج **والانتاج الفكري ضئيل في لبنان** . لبنان خلو من اصحاب الاختصاص الصحيح وان عدد الذين تتوفر فيهم شروط الثقافة العامة واهمها سعة الاطلاع والمقدرة على فهم الامور وحفظ النسبة والموازنة بينها أقل بقليل مما تدل عليه **الظواهر السطحية** فمعظم المسيطرين على الحركة الفكرية في لبنان صحافيون وأدباء **ارتجلوا** انفسهم اساتذة ومفكرين .. **ورقي الشعوب لا يقاس بعدد الذين يفكون الحرف بل بالمثقفين**[1] »

ويقول الدكتور كمال الحاج : « إن الحضارة الغربية لا تجدي نفعاً اذا كانت لا تتساوق مع نهضتنا التاريخية التي كتب علينا ان نكونها أصلاً . **واللغة العربية من جملة هذه الضوابط التاريخية التي يجب ان نقدسها حتى نزاول القيم العالية بصدق وامانة . وبدون هذه اللغة لن يكون لنا عمارات فكرية شاهقة نتحدى بها الزمان ، فهي التي كتب عليها ان تفصح عن مجالات عقلنا وأن تكشف عن مركزنا بين الامم** .. لا احدد التاريخ بالذي كان فلم يعد ، ليس لهذا التاريخ قدسية عندي ، والذي لا يتمسك لا يكون غير مقلد لكن التاريخ الذي اعنيه هو ما تبقى من روح الماضي لخدمة الحاضر : هو معنى الآباء والاجداد ، لا الآباء والاجداد ذواتهم ، هو العلم بمستلزمات الحاضر اولاً . لولا هذا التاريخ لهلك الحاضر ولم يبق من الماضي شيء خالد[2] »

ويقول الاستاذ خليل صابر : « في لبنان فئة من التصوريين دأبها التغني بقيم الحرية والحق والعدالة والمحبة ترسم الاهداف ولا تشق الطريق اليها . تدعو الى **فوق** ولا تمهر أحداً بأجنحة . تتغنى لتسمو بالواقع فلا تسمو الا **بالمنصرفين عن الواقع** . ولقد طغت موجة التغني حتى اصبحت **احدى ميزات ادب شبابنا** واحدى **دلائل فراغه** . أين ترى لبنان من مشاكل العالم .. الواقع ان لبنان ليس شمس الكون ولا رفرف الخلد . الواقع أننا بلد الجهل

١ . من محاضرة بعنوان « النهضة الثقافية في لبنان » القيت في «الندوة اللبنانية » ونشرت في مجلتها النشرة ٩ السنة ١٩٥٠

٢ مقدمة كتاب « برغسون » للدكتور الحاج

والادعاء والانانية والاستغلال . **الواقع اننا في عصر التنظيم الاجتماعي والكثيرون منا يتفلسفون على كل شيء الا على المجتمع** . الواقع ان التيارات الفكرية عندنا ليست من العمق بحيث تستطيع تهديم عناصر التفسخ المستمدة من **انتماءات مريضة الى تواريخ معينة** . الواقع ان عقلية اللبناني في اية منطقة من مناطقنا **لا تخلو من تعصب ذميم او جهل فاضح او نزوع الى تدويل الدين**. الواقع ان فئة التصوريين عندنا تحيا في غير زماننا ومكاننا وأن خلاصنا منوط بتفهمنا لقضايانا وقضايا العالم[1] ..»

الى آخر ما يقول هؤلاء اللبنانيون « الأصحاء » ، فما رأي القدامسة الطامحين الى لبننة العالم ؟ وماذا بعد عند أصحاب اسطورة الاشعاع الفكري ؟ لقد تقدم لبنان في الماضي « **لا لتفوق غريزي طبيعي فينا ناتج عن كون طينتنا أشرف وأكرم من طينة غيرنا، بل لان النهضة بدأت عندنا قبل اي بلد آخر** » . في الماضي كان لهذا الاشعاع ما يبرره . كان ادعاؤنا مقبولاً سنة ١٩٣٠ يوم كان لبنان طليعة البلاد العربية وكان سعيد عقل الصيّاح الوحيد أمام باب دارنا ؛ أما اليوم فلبنان خلف البلاد العربية ثقافة ورقياً، وسعيد عقل لا يداني شاعرة او شاعراً من شعراء العراق المبدعين .

ليكف هذا الرجل عن تمثيله فالذي يقف يموت . وليعد فيتثقف قليلاً او فليتم على أمجاده – على الأقل – ويفتح الطريق قبل ان تطأه سنابك خيول الفاتحين العرب . فاذا وقف سعيد عقل عن الانتاج فان الدنيا لا تقف . الحياة تغيرت ، والتلاميذ كبروا ، والاسطوانة ملها الناس . انهم يريدون شيئاً جديداً وهذا الجديد سعيد عقل إن لم نقل لبنان سعيد عقل باسره يعجز اليوم عن الاتيان بمثله . انه يردد اغنيات قديمة ويدور على نفسه ، وأعف هنا عن التشبيه ؛ أفيأكل الانسان لحم أخيه ؟

اسوق هذا الكلام كله أمام المقدمة التي صدّر بها سعيد عقل ديوان « بوح » الصادر أخيراً ، وبمناسبة الدخلة التي دخل فيها الى حرم صاحبة الديوان السيدة ادفيك جريديني شيبوب وغط قلمه وسطر « تصديراً » زعم فيه مزاعم كثيرة تنافي الواقع ولا تتفق مع الحقيقة بل هي اقرب الى الشعر الرمزي والكلام « الفارغ » منها الى مقدمة تنير لنا الكتاب ثم لا تقتصر على الدعوة للمصدّر والتبجح والنفج [ نفج الأرنب او اليربوع : اثار وعدا . ونفج الانسان نفجاً : فخر بما ليس عنده . ]

اليكم « عينة » من أقوال شاعرنا الكبير : « شعر الحب يكاد يكون وحده الشعر .. ويل شعر ويل فن ليس غزلاً وكدت أقول ويل علم ، الحب كما الارادة التومائية عقل .. العمل الاعظم طعم قبلة .. لم يبن من لم يحب . لم تكن بناية في الشعر العربي لان العرب ليسوا في العاطفة من ذوي النفس الطويل ، بدأ الغزل حقاً تحت شق القلم العربي في إطلالة الثلث الثاني من القرن العشرين » .. اي يوم تغزل سعيد عقل وطلعت ادفيك وكانت الثورة التي سوف تحدث مذهباً ... الى آخر ما جاء في تصدير صاحبنا من مزاعم وافتراءات سنفرد لها بحثاً خاصاً في عدد مقبل نتعمق فيه كلام « فيلسوفنا » وندرس مذهب شاعرتنا ؛ فالى اللقاء .

**احمد ابو سعد**


# بيت الطلبة

## محطة بحمدون — لبنان

ملك المدور . قرب مستشفى ابو رجيلي

- **يستقبل الشباب من لبنان وسائر البلاد العربية .**
- **خدمة ممتازة – وجبات طعام غنية – غرف نوم رحبة .**
- **رسوم معتدلة تقارب ٢٠٠ ليرة شهرياً .**
- **ادارة البيت تؤمن تذاكر السفر بالطائرة ذهاباً واياباً باسعار مخفضة .**
- **أغتنم هذه الفرصة النادرة واحجز لنفسك مكاناً بعد الاطلاع على بيان البيت مجاناً .**
- **المراجعات مع إدارة المعهد العالي – برج ابي حيدر – بيروت – لبنان .**


١ «واقع الفكر اللبناني على ضوء الواقع العالمي» . مجلة الألواح . العدد الثالث السنة الاولى .